المحاضرة الأولى: مفهوم النوع أو الجنس الأدبي

تمهيد:

تعد قضية الأجناس الأدبية من أكثر الإشكالات النقدية المطروحة منذ عهد (أفلاطون) الذي أسس التصنيفات الأولية للأجناس الأدبية وتلميذه (أرسطو)، حتى أن وضع إطار دلالي لمصطلح الجنس في حد ذاته أمر صعب في ظل تداخله مع مصطلح النوع، مما يدفع الباحث إلى دخول مدارات بحثية متعددة ومتباينة تضرب بجذورها في صلب الدراسات البلاغية القديمة التي أسس لها أرسطو في كتابه فن الشعر، كما تتماشى مع المطارحات النقدية الحديثة التي تعد قديمة قد الحديث عن الأدب، وحديثة واكبت التطورات المنهجية التي طرأت على المباحث النقدية الحديثة.

مفهوم الجنس/ النوع:

لغة:

إن السعي نحو الوقوف على البعد اللغوي لمصطلح الجنس سيسفر عن ضبط دلالي على عكس ما يشهده البعد الاصطلاحي، إذ تجمع المعاجم اللغوية على تعريف الجنس بأنه: "الضرب من الشيء، أو الضرب من كل شيء"، كما هو الحال في تعريف (ابن منظور) في معجمه (لسان العرب)، الجنس هو "الضرب من كل شيء، والجمع أجناس وجنوس، والجنس أعم من النوع ومنه المجانسة والتجنيس"

يتضح من هذا التعريف أن النوع أخص من الجنس، وهو أيضا الضرب من الشيء، قال (ابن سيدة): "وله تحديد منطقي لا يليق بهذا المكان، والجمع أنواع، قلّ أو كثر، قال الليث: النوع والأنواع جماعة، وهو كل ضرب من الشيء، وهو كل صنف من الثياب والثمار وغير ذلك، حتى الكلام، وقد تنوع الشيء أنواعا".

مفهوم الجنس في الاصطلاح العربي:

وردت لفظة الجنس في مؤلفات الفلاسفة والبلاغيين والنقاد العرب للدلالة على القسمين الكبيرين الذين يتكون منهما الأدب العربي وهما الشعر والنثر، واستخدم (الخطابي) هذه اللفظة للقرآن معتبرا إياه جنسا قائما بذاته، قائلا: "الكلام جنس يتفرع إلى أنواع ذلك أنه يقوم بأشياء ثلاثة لفظ حامل، ومعنى قائم بذاته، ورباط لهما ناظم، وهذه مزية القرآن، حيث اجتمعت فيه هذه الثلاثة، فقد جاء بأفصح الألفاظ في أحسن تأليف مضمنا أصح المعاني، وهذه الفضائل لا توجد إلا متفرقة في أنواع الكلام"

والجنس الأدبي أو النوع الأدبي حسب ما أقر بذلك (محمد التونجي) نوع من "القوالب الأدبية التي يستخدمها مبتدعها لصب إبداعه فيها، فالقصة جنس أدبي، والمسرحية جنس أدبي ولكل جنس أدبي قواعد خاصة ومفهومات معينة لا يجوز أن يخرج عنها"، لأنه يتحدد من خلالها كوجود قواسم مشتركة أو مختلفة بين مجموعة من النصوص باعتبارها بنيات ثابتة متكررة ومتواترة من جهة، أو

بنيات متغيرة ومتحولة من جهة أخرى، وهذا ما يجعل تلك النصوص والخطابات تصنف داخل صيغة قولية أو جنس أو نوع أو نمط أدبي معين، وما ننوه إليه نحن هنا أن عناصر الاختلاف الثانوية لا تؤثر بشكل من الأشكال على الجنس الأدبي، لأن المهم هو ما يتضمنه من عناصر أساسية قارة وثابتة لا متغيرة.

وعلى العموم يتحدد الجنس الأدبي عندما تتجمع في ذهن القارئ مجموعة العناصر المشتركة حول نوع أدبي معين، حيث يدرك أن هذا العمل رواية، أو قصيدة، أو مسرحية... وغيرها ، وبعبارة أخرى إن شكل التعبير هو الذي يحدد النوع حسب قوانينه الخاصة"

مفهوم الجنس في الاصطلاح الغربي:

عرف مصطلح الجنس عند الغرب تعريفات اصطلاحية عدة من بينها ما قاله (بنفنست) أنه ليس "سوى صيغ فنية عامة لها مميزاتها وقوانينها الخاصة، يحتوي على فصول ومجموعات ينتظم خلالها الإنتاج الفكري على ما فيها من اختلاف وتعقيد"، ولو تأملنا هذا التعريف لوجدناه ينمّ على صرامة أجناسية عاشت منذ النقد الأرسطي للأنواع وحتى بروز الرومنسيين على الساحة الأدبية .

مصطلح الجنس/ النوع: من السياق الدلالي إلى الاستعمال

تباينت ترجمة مصطلح Genre إلى الجنس حينا والنوع حينا آخر، وهو مصطلح يعود في أصله اللاتيني إلى Genus الذي يدل بصورة عامة على معنى الأصل، وعلى هذا الأساس استخدم إلى غاية عصر النهضة، كما تشير الدراسات أن "ثمة كلمات متعددة استعملت للدلالة على لفظة الجنس/ النوع منها كلمة Genre وكلمة Type وكلمة Kind والأولى قد ترجمت بكلمة جنس، والثانية ترجمت بكلمة نمط، والثالثة ترجمت بكلمة نوع، وقد استعملها (غراهام) في كتابه (محاولة في النقد)، هذا وقد استخدم (توماس مور) كلمة Species للدلالة على الأنواع الأدبية كافة، وهي لفظة شاع استعمالها في علم الأحياء، فقد كان كتاب (تشارلز داروين) حول نشأة النوع البشري وارتقائه بعنوان Origin of species الذي ترجم للعربية بـ (أصل الأنواع) من الاوائل الذين استعملوا هذا المصطلح في علم الأحياء أما الكلمتان الأوليتان فقد شاع استعمالهما في الآداب والفنون"، إذ استعمل (بشر بن متّى) الأنواع لدى ترجمته لكتاب (أرسطو) (فن الشعر)، كما استعمل (العسكري) في كتابه (الصناعتين) كلمة أجناس وذلك حين حدد الرابط العام بين الشعر والخطابة في النظم، مؤكدا على أن هذا الأدب يأتي على أنواع سماها أجناسا، وقال: "أجناس الكلام المنظومة ثلاثة: الرسائل والخطب والشعر، وجميعها يحتاج إلى حسن تأليف وجودة تركيب"

مما يسترعي الانتباه في الدراسات النقدية أن هناك من النقاد من اعتمد مصطلح الجنس وهناك من آثر اعتماد مصطلح النوع، ومن خلال العودة إلى المؤلفات التي اعتمدت المصطلح الأخير وجدنا أن المصطلحين يقتربان كثيرا من بعضهما من حيث المعنى، غير أن هناك من النقاد من يرى غير ذلك، ومن الذين كان لهم سبق الإشارة إلى عدم وجود اتفاق تام على استخدام مصطلح الأجناس الأدبية كمرادف لمصطلح الأنواع الأدبية الناقد (سامي شهاب الجبوري) حيث يرى أن "النقاد

أمثال (محمد غنيمي هلال) في كتابه (الأدب المقارن)، و(عبد السلام المسدي) في كتابه (النقد والحداثة) و(أحمد كمال زكي) في كتابه (دراسات في النقد الأدبي) و(فؤاد مرعي) في كتابه (مقدمة في علم الأدب)، و(رشيد العبيدي) في كتابه (دراسات في النقد الأدبي) و(خلدون الشمعة) في بحثه (الأجناس الأدبية من منظور مختلف) و(عبد الإله الصائغ) في بحثه (التجنيس بين الخطابين الشعري والسردي) وغيرهم أكدوا على مصطلح الجنس ولم يستعملوا مصطلح النوع الأدبي أو الشكل الأدبي مقارنة بنقاد آخرين ركزوا على مصطلح النوع ک (عبد المنعم تليمة) في كتابه الموسوم بـ (مقدمة في نظرية الأدب)، و(علي جواد الطاهر) في كتابه (مقدمة في النقد الأدبي) و(عبد الله إبراهيم) في بحثه (مقدمة في نظرية الأنواع الأدبية) وغيرهم كثير"

مفهوم نظرية الأجناس الأدبية:

هي مصطلح يشير إلى مبدإ تنظيمي، وممارسة تستهدف تجميع المتشابهات وتمييز المختلفات اعتمادا على نوع من الاستقراء والوصف للظاهرة المراد توصيف مكوناتها وتمييز عناصرها، وذلك بوضع أطر مرجعية يستند إليها لضبط ظاهرة ما وإدراكها بسهولة، وقد تصبح فيما بعد هذه الأطر المرجعية بمثابة معايير يتخذها النقاد "منطلقا في تقويمهم للنصوص التي يواجهونها، كما يحدد بها القراء آفاق توقعاتهم من النصوص عند قراءتها وتقديرها"، إذ تكوّن الأجناس الأدبية "ساحة مغناطيسية ذات تأثير فعال جدا في عملية إنتاج الأعمال الأدبية ونقدها واستهلاكها في أي تقليد أدبي قومي"، وهي –أي الأجناس الأدبية – "مؤسسة مهمة من مؤسسات أي مجتمع تؤدي جملة من الوظائف تتصل بالكاتب والقارئ العام والقارئ الخبير معا"

أما الكاتب فيستخدم الجنس الأدبي لنقل رؤيته الفنية والاجتماعية والنفسية والسياسية، ونشرها في مجتمعه بوساطة العمل الأدبي الذي يجسدها، وفضلا عن ذلك فإنه يحدد النظام الترميزي(Code) الذي يحكم رسالته الفنية التي يودّ أن تبلغ قارئه عندما يحسن تفسيرها تبعا لهذا النظام الترميزي مثلما يحدد آفاق توقعات قارئه ليرضيها أو يحبطها فيما بعد، بحسب الغرض الذي يريده من عمله.

وأما القارئ العام فإن مؤسسة الجنس الأدبي تكوّن لديه نظام ترميز يتعامل به مع العمل الأدبي ويرسم آفاق توقعاته تبعا له، ويحكم في النهاية استجابته له، مثلما يكوّن ذوقه النوعي الخاص بهذا الجنس الأدبي، هذا الذوق الذي يكون حصيلة تراكم قراءاته في أطوار حياته المختلفة.

وأما القارئ الخبير أو ما يعرف بالناقد الأدبي فإن مؤسسة الجنس الأدبي غالبا ما تكون الإطار المرجعي الذي يحكم قراءاته النقدية الكبرى والصغرى وتفسيره لدلالاته السطحية والعميقة، وتبيّنه لصلاته الأدبية وفوق الأدبية، وتحديده لمصادره القومية والعالمية، ثم الحكم عليه في النهاية .

مراحل نظرية الأجناس:

يكاد يجمع أغلب النقاد والدارسين على أن نظريه الأجناس كما تبلورت في الثقافة الغربية مرت بثلاث مراحل هي:

أولا- المرحلة الكلاسيكية:

وهي نظرية تنظيمية اضطرادية اكتسبت سلطتها بتقادم العهد، وهذه المرحلة لا تؤمن فقط بأن نوعا يختلف عن نوع بالطبيعة والقيمة، بل تؤمن أيضا بأن هذه الأنواع يجب أن تبقى منفصله ولا يسمح لها بالامتزاج، وهي التي صنفت الفنون إلى أنواع كبرى وأنواع الصغرى لا تتلاقى ولا تتداخل، كل نوع له سماته وخصائصه التي يتميز بها وأدواته التي يبني بواسطتها عالمه الأدبي ومتنه.

هذا وقد حرص أرسطو أن يبين بأن كل نوع أدبي يختلف عن النوع الآخر من حيث الماهية والقيمة، ولذلك ينبغي أن يظل منفصلا عن الآخر، وقد عرف هذا فيما بعد بمذهب نقاء النوع، وللتنويه فقط ظل يعمل بآراء أرسطو حتى القرن السابع عشر.

وللإفادة فإن نظريه الأنواع الأدبية لدى أرسطو لم تكن مذهبا شكليا فارغا بل كان لها أساس فلسفي أكثر بكثير مما يتيح له أن يظهر منه، ولعل محاسنها تكمن في ذلك المبدأ الصحيح القائل بأن كل نوع أدبي يقدم درجه إشباعه الخاصة به، ويعمل حسب مستواها الخاص به كما أن له إجراؤه المناسب له.

ثانيا- المرحلة الرومانسية:

وما أعقبها من مدارس والتي حاولت في معظمها أن تتجاوز النظرة الأولى إلى نوع من التشابه والتداخل في حدود الموضوعات والمصادر والمواد الخام.

ثالثا- المرحلة الحديثة:

وهي مرحلة النظرية الوصفية بكل وضوح، فهي لا تحدد عدد الأنواع الممكنة ولا توصي الكتاب بقواعد معينة، لا لشيء إلا لأن معظم أصحابها رفضوا نظرية الأجناس جملة وتفصيلا طارحين وجهة نظر جديدة تتجاوز الأجناس المنفصلة الى المتون المتصلة التي لا تنتمي الى لجنس الأدب

موقف النقاد حول الأجناس الأدبية:

أ- الموقف الرافض:

رفض عدد من الفلاسفة والنقاد الأجناس الأدبية أمثال (كروتشيه) من مبدأ الحدس واستقلالية الأثر و(بلانشو) من مبدأ تلاشي الأدب، وتفرد (آرثر) و(بارت) من مبدأ الكتابة واستقلالية النص.

لقد حطم عالم الجمال الإيطالي (بينيديتو كروتشي) مقوله الأنواع الأدبية ضمن كتابه (المجمل في فلسفة الفن) حين قال: "هذه ملحمة، وهذه غنائي، أو هذه دراما، وهذه غنائية، فتلك تقسيمات مدرسية لشيء لا يمكن تقسيمه"، وليبرهن صحة قوله ذهب إلى أن النقاد بدلا من أن يعمدوا إلى إبراز جمال الأثر أو قبحه انصرفوا إلى تتبع مدى التزام المبدع بقواعد النوع الأدبي الذي يندرج عمله ضمنه، إذ يقول: "إن النقاد الذي يحكمون على الآثار الفنية يقيسونها ي بالنسبة إلى النوع الفني أو الفن الخاص الذي ينسب في رأيهم إليه، وبدلا من أن يبرزوا جمال الأثر أو قبحه فيفكرون في تأثيراته فيقولون أن هذا الأثر قد التزم قواعد الدراما واخترقها واخذ بقوانين التصوير او خرج عليها"

لقد غالى (كروتشي) كثيرا في هجومه على الأجناس الأدبية وبالغ في الثورة، إلا إنه قد أوضح مقصده من وراء ثورته هذه حين أكد اهتمامه بالنص باعتباره مناط الفن ووحدة التعبير، فهو لم يرفض النظرية ككل وإنما دعا الى الوقوف على شبكة التصنيفات للأنواع الأدبية، أي إعادة تقويمها .

ب- الموقف المؤيد:

يرى أصحاب هذا الموقف أن مقولة الأجناس الأدبية حقيقة واقعة، ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه (رينيه وليك(و(أوستن وارن) و(جان ماري شايفر)، هذا الأخير الذي رفض فكره استقصاء الأجناس الأدبية، فذهب إلى أن كل أثر أدبي يفرض أفق الانتظار ، أي جملة من القواعد السابقة التي توجه فهم القارئ له وتساعده على تلقي الأثر وتقويمه.

لقد بدأ الدعوة إلى تداخل الأجناس الأدبية مع ظهور الرومانسية، ولعل أبرز مثال على ظاهرة التداخل الرواية، كما ظهر بشكل جلي بين القصة والقصة القصيرة ، وهذا ما يؤكده (باديس فوغالي) بقوله: " ظاهره تداخل الأنواع ليست جديدة في الآداب الحديثة، فقد عرفتها الآداب الإنسانية منذ القدم، ففي الآداب اليونانية شكلت الملحمة تداخلا عميقا في تأليف الأنواع وتلاحمها، وهي في الواقع صيغة من أنواع أدبيه شتى، ومن المبررات التي يستدل بها دعاة التداخل بين الأجناس الأدبية

1- صعوبة تحديد مفهوم متكامل لأي جنس أو نوع أدبي.
2- عدم امتلاك تعريف محدد لأي نوع من الأجناس الأدبية لأن كل جنس هو جزء من نوع آخر، ولا وجود لحدود فاصلة بين مكونات الكل وخصائصه وعناصره.

ليضعهم مفهوم التداخل مع مفهوم التناسق، فهو يشكل مساحة للحوار بين النصوص، فهو يعمل دائما على الحفاظ على النوع من جهة وعلى إحداث التداخل النوعي من جهة أخرى كتناص الرواية مع الشعر.